

الصُّوفِيُّ؟

إنه من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق ، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق .

الصوفية ؟

إنهم قوم آثروا الله على كل شيء ؛ فآثرهم الله على كل شيء .

- من أين جاء هذا الاسم ؟

لقد سئل ذو النون : لمَ لزمتمُ هذا الاسم - اسم التصوف - وهل هو مشتق من معنى ، أو لقب ؟
فقال :

« قيل: إن اسم الصوفية كان في الأصل «صَفْوِيَّة» من الصفاء، وذلك أنهم يسترون العمل ويكتمونه فلا يشوبه الرياء.

وقيل: إنهم كانوا في الأصل «صُفْتِيَّة» ، مأخوذ من أهل «الصُّفَّة» .
وقيل : إنه اسم لزمهم على غير اشتقاق ، وإنما هو لمن تَبَيَّنَ منقطعاً إلى الله من العباد، فأخلص المجاهدة.

وقيل: إنه عَلَمٌ غير مشتق من نسبة ولا عمل.

وكانوا يلبسون الصوف ؛ لأنه أَدْعَى إلى التقشف ، وأشبهه بلباس الصالحين.

وكان التصوف سمة المجتهدين في العبادة .

الطريق :

من طرائف ذى النون أنه سئل عن السَّفْلة من هم ؟

فقال :

« مَنْ لَا يَعْرِفُ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَعْتَرِفُهُ » .

والقرب من الله سبحانه وتعالى سعادة .

ويقول ذو النون :

« بِأَوَّلِ قَدَمٍ تَطْلُبُهُ تَدْرِكُهُ وَتَجِدُهُ » .

لا بد من البدء بالطلب ، والطلب في إخلاص وصدق ، وهذا طريق الإنابة .

وأما طريق الاجتناء فلا شروط له . . إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اللَّهُ يُجِبِّي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١) .

للتصوف - إذن - طريقان : طريق الاجتناء ، وطريق الإنابة . . وعن

ذلك يعبر ذو النون فيقول - فيما رواه يوسف بن الحسين - :

سمعت ذا النون يقول :

« العطايا مواهب ، والطاعات مكاسب ، والناس رجالان :

دَارِجٌ ، وَوَاصِلٌ .

.. فالدارج سائر على طريق الإيمان .

.. والواصل طائر بقوة المعرفة .

.. ولكلٌ دليل ؛ فدليل الإيمان : العلم . ودليل المعرفة : الله تعالى .

.. فمتى يلحق السائر الطائر » .

ويلخص ذو النون الطريق إلى الله ، والسعادة التي تتأتى عنه في

إيجاز محكم جميل ، فيقول :

(١) سورة الشورى : ١٣ .

« إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خاف الله، فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله ، فإذا استقرت عنده درجة الهيبة دامت طاعته لربه ، فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء. فإذا استقرت درجة الرجاء تولدت من قبل الرجاء المحبة ، فإذا استحكمت معاني المحبة في قلبه استتبعته درجة الشوق ، فإذا اشتاق أداه شوقه إلى الأنس بالله، فإذا انس بالله اطمأن إلى الله، فإذا اطمأن إلى الله كان ليله في نعيم ، ونهاره في نعيم ، وسره في نعيم، وعلايته في نعيم » .

ومدار الطريق - فيما يرى ذو النون - على أربع :

« حب الجليل ، وبغض الفاني القليل ، واتباع التنزيل ، وخوف التحويل » .

وينبغي للمريد أن يحكم الأصل ، ثم يطلب الفرع ، كيف يسأل عن الزهد وهو لم يحكم الورع ، وقبل الورع التوبة ، ولربما نظرت إلى الرجل يسأل عن الرضا وهو لا يدري ما المتنوع . وإننا لا نتحدث هنا عن طريق الاجتناء فإنه في حقيقة الأمر ليس طريقاً بالمعنى العادي :

إنه جذبة من جذبات الحق في لحظة بعدها يتبدل المرء حالاً بعد حال ، ويدخل رحاب الحق - جل وعلا - عبداً من عباده المخلصين . لقد اختارته العناية منذ الأزل ، وأدركته في الوقت الذي اختارته الحكمة .

أما طريق الإنابة فهو الطريق بالمعنى العادي للكلمة ، ولا بد فيه من الطلب ، فإذا صدقت النية في الطلب وصدقت العزيمة جاءت الهداية :

﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنِ يُبِغْ ﴾ (١).

وإن قلّة تأسّف إنسان - كما يقول ذو النون - على الحق إنما تكون من قلة قَدَّر الحقَّ عنده ، فإذا عرف الإنسان قَدْرَ الحقِّ فإنه يسعى في طلبه .

ما هو أول القَدَم الصادق في طلب الله سبحانه ؟
إنه الفرار - من كل شيء - إلى الله :
﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ (٢).

التوبة :

وأول مقام في الفرار إلى الله التوبة الصادقة ، حتى يبدأ المسير إلى الله على طُهر ، وحتى يكون العهد مع الله على ترك المعاصي .
وتوبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص تكون من الغفلة .
يقول ذو النون :

« لله عبادٌ تركوا الذنوب حياءً من كرمه ، بعد أن تركوها خوفاً من عقوبته » .

« ولو قال لك الله تعالى : افعل ما شئت ، فلست آخذك بذنب . لكان ينبغي أن يزيدك كرمه استحياءً منه ، وتركاً لمعصيته ، إن كنت حراً كريماً عبداً شكوراً .. فكيف وقد حدّرك ؟ » .

وهذا الذي يقوله ذو النون إنما يستلهم فيه قول رسول الله ﷺ :
« نَعَمْ الْعَبْدُ صُهِيبٌ لَوْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ لَمْ يَعِصْهُ » .
لم يعصه حياءً منه ، وهذا من صفات أصحاب النفوس الكريمة .

(٢) سورة الذاريات : ٥٠ .

(١) سورة الشورى : ١٣ .

المريد:

ومنذ أن يبدأ الإنسان الطريق بالتوبة الصادقة، يسمى « مُريداً » .
ويوالى ذو النون النصيح للمريد . . ومن كلامه :
« إياك أن تكون للمعرفة مُدّعياً ، أو بالزهد محترفاً ، أو بالعبادة متعلّفاً ، وفراً من كل شيء إلى ربك » .
وتحذير ذى النون من التعلق بالعبادة إنما هو توجيه إلى أن الرقى في مقامات القرب إنما مرده إلى الله سبحانه ، لا إلى العبادة . .
ولذلك يجب أن يكون تعلق المريد دائماً بالله ، لا بأعماله .
وليس فى طريق الفرار إلى الله عقبات ، وذلك أن الرزق مضمون والرزاق موجود ، يقول ذو النون معاتباً الذين لا يفرّون إلى الله :
« إن الله رَزَقْنَا قُوَّتَنَا ، وَكَلَّفْنَا دُونَ طَاقَتِنَا ، فَلَا بِمَا رَزَقْنَا اِكْتَفَيْنَا ، وَلَا بِمَا كَلَّفْنَا اِثْتَمَرْنَا » .

وذو النون فى نصائحه للمريدين يحذّرهم - باستمرار - « الدنيا » .
والدنيا فى عُرف الصوفية إنما هى الشهوات والأهواء ، وقد عبّر الله سبحانه عنها بقوله :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ (١) .

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

ويقوله سبحانه :

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ ﴾ (١) .

ويقول ذو النون :

« استقرت منازل الدُّجَى ، وثبتت حُجج الله على خَلْقِهِ ، فَأَخَذَ بحظه ، وَمُضَيِّعٍ لنفسه ، فمنازه حكمته ، وحُجَّتْه كتابه ؛ فقامت الدنيا ببهجتها فأقعدت المريد ، وألْهَتْ الغافل ، فلا المريد طلب دواءه ، ولا الغافل عرف داءه .

ثم حَصَّ الله خصائص من خلقه ، فعرفَهم حكمته ، فنظروا من أعين القلوب إلى محجوب الغيوب ، فساحت أرواحهم فى ملكوت السماء ، ثم عادت إليهم بأطيب جنى ثمار السرور ، فعند ذلك صيَّروا الدنيا معبراً ، والآخرة منزلاً ، هَمَّتْهُم وقلوبهم عند ربهم...ولن تفنى النفس إلا بالعلم بالله » .

وقد سئل عن الآفة التى يُخدع بها المريد عن الله ، فقال :

« يُرِيهِ الألفاف والكرامات والآيات » .

قيل له : يا أبا الفيض ، فَبِمَ يُخدع قبل وصوله إلى هذه الدرجة ؟ قال : « بوطء الاعتبار ، وتعظيم الناس له ، والتوسع فى المجالس ، وكثرة الاتباع ، فنعوذ بالله من مَكْرِهِ وَخَدْعِهِ » .

(١) سورة آل عمران : ١٤ .

قال : وسمعت ذا النون ، وقد سئل :

- ما أساس قسوة القلب للمريد ؟

فقال :

« يبحثه عن علوم رضىت نفسه بتعليمها دون استعمالها والوصول إلى حقائقها » .

ومن أهم النواحي التي كان يهتم بها « ذو النون » - في نصائحه للمريدين - هي « الادعاء » . .
فهو يقول مثلاً :

« كل مدح محجوب بدعواه عن شهود الحق .. لأن الحق شاهد لأهل الحق ، لأن الله هو الحق ، وقوله الحق ، ولا يحتاج أن يدعى إذا كان الحق شاهداً له . فاما إذا كان غائباً فحينئذ يدعى وإنما تقع الدعوى للمحجوبين » .

وقال :

« من ادعى مقاماً حُجب به عن الله » .

والحققون لا يدعون . . يقول ذو النون :

« كَلْتُ ألسنة المحققين عن الدعاوى .. ونطقت ألسنة المدعين بالدعاوى » .

وينصح المريد بالتزام العبودية :

« والعبودية: أن تكون عبداً في كل حال، كما هو ربك في كل حال » .

وإذا خرج مريد من حوزة الأدب يرجع إلى حيث شاء .

ولكى يستفيد المريد لا بد له - مع الأدب - من التواضع . .

يقول ذو النون :

« يا معشر المريدين : من أراد منكم الطريقَ فليُلقَ العلماءَ بإظهار
الجهل ، والزَّهَادَ بإظهار الرغبة ، والعارفين بالصمت . وذلك : ليزيده
العلماء علماً ، والزهاد زهداً ، والعارفون معرفة » .

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

ولقد حرص ذو النون - الحرص كله - أن يجعل طريق المريد أول
الأمر طريقاً ربانياً ، فين المسالك والمهالك .

لقد بين علامات الانحراف وعلامات القبول . . عن سعيد بن
عثمان عن أبي الفيض ذى النون المصرى ، قال :

« إن لله لصفوة من خلقه ، وإن لله لخيرة من خلقه » .

قيل له : يا أبا الفيض ، فما علامتهم ؟

قال :

« إذا خلع العبد الراحة ، وأعطى المجهود فى الطاعة ، وأحبَّ سقوط

المنزلة » .

قيل له : يا أبا الفيض . . فما علامة إقبال الله - عز وجل - على

العبد ؟

(١) سورة التوبة : ٦٠ .

قال :

«إذا رأيته صابراً، شاكراً، ذاكراً، فذلك علامة إقبال الله على العبد» .

قيل : وما علامة إعراض الله عن العبد ؟

قال :

« إذا رأيته ساهياً ، لاهياً ، مُعْرِضاً عن ذكر الله ، فذاك حين يُعرض

الله عنه » .

ثم قال :

« وَيَحْكُ ، كَفَى بِالْمُعْرِضِ عن الله خسراناً ، وهو يعلم أن الله مُقْبِلٌ

عليه وهو مُعْرِضٌ عن ذكره » .

قيل له : يا أبا الفيض ، فما علامة الأنس بالله ؟

قال :

« إذا رأيته يُؤْنِسُكَ بِخَلْقِهِ : فإنه يُوحِشُكَ مِنْ نَفْسِهِ .. وإذا رأيته

يُوحِشُكَ مِنْ خَلْقِهِ : فإنه يُؤْنِسُكَ بِنَفْسِهِ » .

ثم قال أبو الفيض :

« الدنيا والخلق لله عبيد ، خَلَقَهُم لِلطَّاعَةِ ، وضمن لهم أرزاقهم ،

ونهاهم وحدّهم وأنذرهم ، فحرصوا على ما نهاهم الله عنه ، وطلبوا

الأرزاق - وقد ضمنها الله لهم - فلا هم في أرزاقهم استزادوا ، ولا هم

للطاعة استجابوا » .

ثم قال :

« عَجَباً لِقُلُوبِكُمْ .. كَيْفَ لَا تَتَّصِدَعُ ؟ !! .. ولا جسامِكُمْ .. كَيْفَ لَا

تتضعض ؟ !! .. إذا كنتم تسمعون ما أقول لكم وتعقلون !! » .

ومن أقواله :

« إن المرید إذا صدق سَعِيَّهُ فيما بينه وبين الله حاله في صدور المؤمنين ، وحلّى ذكره في أفواه المحسنين ؛ شغلهم شغل يغلب على جميع الاشتغال ، وحبهم له يحول بين الأهل والمال » .
ويوجب ذو النون على المرید ألا يقول شيئاً إلا إذا كان مستنداً إلى حجة من الكتاب والسنة ، وفي ذلك يقول :
« أشدُّ المریدین نفاقاً : من لحظ لحظة ، أو نطق بكلمة بلا حجة استبانها فيما بينه وبين ربه » .

وقال :

« أخفى المریدین نفاقاً : من تكلم بكلمة ، أو عمل عملاً على سبيل الغفلة ، ثم سئل عن الحجة في ذلك فاحتج بحجة لم تقع له قبل الفعل استناداً عن الناس واستحساناً لقوله » .
وننتهى في هذا بهذه النصيحة التي يُسديها ذو النون للمریدین :
عن العباس بن حمزة ، قال :

« دخلت على ذی النون وعنده نقرٌ من المریدین وهو يقول لهم :
« توسّدوا الموت إذا نمتم ، واجعلوه نُصْبَ أعینکم إذا قمتم ، كونوا
كانکم لا حاجة لكم إلى الدنيا ولا بد لكم من الآخرة » .

الذُّكْر :

إن المرید ، بعد أن يأخذ على شيخه العهد على التوبة ، يبدأ - فيما يبدأ به - بالذكر .

والذكر في عُرف القوم ركن مهم من الأركان التي لا بد منها
للقرب من الله سبحانه وتعالى .

ولقد أمر الله تعالى بالذكر ، إنه سبحانه أمر بالذكر الكثير ، ولم
يحدد له وقتاً وإنما أطلقه إطلاقاً ، فهو مطلوب في الصباح ، وفي
المساء ، وفي الآصال ، وفي الضحى ، وفي الليل ، وفي كل وقت .
ولم يحدد الله سبحانه له حالة بعينها ، فهو مطلوب إذا كان
الإنسان قائماً ، وإذا كان قاعداً ، وإذا كان مضطجعاً .

وقد جعله الله من صفات ذوى الألباب .
ورتبَّ الله عليه الكثير من الفوائد للعبد في دنياه وفي آخراه .
والاستغفار من الذكر . . يقول الله سبحانه في شأنه :

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ
مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ
أَنْهَارًا ۝ ﴾ (٢) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ جعلَ الله له مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ
فَرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .

(١) سورة هود : ٩٠ .

(٢) سورة نوح : ١٠ - ١٢ .

ويقول - صلوات الله وسلامه عليه - :

« أُعْطِيتُ أَمَانِينَ لَأَمْتِي » . . ثم تلا :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١).

ثم قال : « فإذا مضيت بقى الأمان الثانى : الاستغفار » .

وكثرة التسييح من الوسائل المنجية ، يقول سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٢)

ويقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (٣).

والصلاة على رسول الله ﷺ من الذكر ، وعنهما يقول الشاعر :

إِذَا كُنْتُ فِي ضَيْقٍ وَهُمْ وَفَاقَةٌ وَأُمْسَيْتُ مَكْرُوبًا وَأَصْبَحْتُ فِي حَرَجٍ

فَصَلَّ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ كَثِيرًا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِيكَ بِالْفَرْجِ

أما الفائدة الكبرى للذكر الصافى المخلص ، فهى القرب من الله

سبحانه .

والصوفية يستعملون الذكر للقرب من الله تعالى .

ولذى النون الكثير فيما يتعلق بالذكر . . إنه يقول :

(٢) سورة الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤ .

(١) سورة الأنفال : ٣٣ .

(٣) سورة القلم : ٢٨ .

« من القلوب قلوب تَسْتَغْفِرُ قَبْلَ أَنْ تُذْنِبَ؛ فَتُثَابِقَ قَبْلَ أَنْ تُطِيعَ » .

ولقد سئل عن الذكر ، فقال :

« هو غيبة الذاكر عن الذكر » .

ويقول :

« من ذكر الله ذكراً على الحقيقة ؛ نسي في جنب ذكره كل شيء ،

وحفظ الله عليه كل شيء ، وكان له عوضاً عن كل شيء » .

ومن كلام ذي النون :

« مَنْ اسْتَأْنَسَ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ صَافِي لَذَّةَ ذِكْرِ مَوْلَاهُ » .

وقال أبو جعفر المغربي : سمعت ذا النون يقول :

« إِذَا أَكْرَمَ اللَّهُ عَبْدًا أَلْزَمَهُ ذِكْرَهُ ، وَأَلْزَمَهُ بَابَهُ ، وَتَعَرَّفَ إِلَيْهِ بِالْبِرِّ

وَالْفَوَائِدِ ، وَمَدَّهُ مِنْ عِنْدِهِ بِالزَّوَائِدِ ، وَيَصْرِفُ عَنْهُ أَشْغَالَ الدُّنْيَا ،

وَيَصْرِفُ عَنْهُ الْبَلَايَا ، فَيَصِيرُ مِنْ خَوَاصِّ اللَّهِ وَأَحْبَابِهِ .. فَطُوبَى لَهُ

حَيًّا وَمَيِّتًا .

لو علم أبناء الدنيا بحظَّ المقرَّبِينَ وتلذُّذِ الذاكرين وسرور المحبِّين :

لَمَاتُوا كَمَدًا » (١) .

وقال ذو النون :

« من المحال أن تجد طعم ذكره ، ثم لا يشغلك به عما دونه » .

وكان ذو النون ينبه إلى أن من علامة إعراض الله عن العبد :

« أن تراه ساهياً ، لاهياً ، لاغياً ، مُعْرِضاً عن ذكر ربه .. تثقلُ عليه

مُجَالَسَةُ الذاكرين » .

(١) أخرجه البيهقي .

وكان ينبه أيضاً إلى أن :

« لكل قوم عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكره » .

وروى عن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول :

« لن ينال أحد اليقين في المعرفة والتوكل إلا بدوام ذكر الله بالقلب، وكثرة مناجاته ، وقطع ما شغل القلوب عن ذكر الله ، والله ولي المؤمنين » .

الورع:

ونعود إلى التوبة من جديد ونحدث عن آثارها . .

إن التوبة إذا صدقت استتبع - لا محالة - الورع .

والورع هو تحرر الحلال في كل شيء ، وله شأنه العظيم في التقوى ، وفي تنوير القلب .

ولقد تحدث الرسول ﷺ عن تحرر الحلال متناسقاً مع القرآن الكريم في ذلك :

عن عطاء عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً ﴾ (١) . فقام سعد بن

أبي وقاص ، فقال : يا رسول الله ، أدع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال ﷺ :

« يَا سَعْدُ ، أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ

بِيَدِهِ ، إِنْ الرَّجُلَ لِيَقْدِفُ اللَّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ يَوْماً ، وَإِنَّمَا عَبْدٌ نَبَتَ لَحْمَهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالْنَارُ أَوْلَى بِهِ » .

(١) سورة البقرة : ١٦٨ .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « يا أيها الناس .. إن الله طيبٌ ، لا يقبل إلا طيباً .. وإن الله أمر
 المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال :
 ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 عَلِيمٌ ﴾ ^(١) .

وقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ^(٢) .
 ثم ذكر الرجل يُطيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، ومطعمه حرام ، ومشربه
 حرام ، وملبسه حرام ، وغُدَى بالحرام ، يمدُّ يديه إلى السماء : يا رب
 يا رب ، فأنَّى يُستجلبُ لَكَ ^(٣) .
 ويقول ذو النون :
 « من لم يفتش على الرغيفين من الحلال لا يفلح في طريق الله - عزَّ
 وجلَّ » .

وذو النون - متابعاً للقرآن والسنة - لا يقصر الورع على الجانب
 المادى ، وإنما يعممه على كل شىء ، فقد قال له رجل مرة :
 - إن امرأتى تقرأ عليك السلام .. فقال صلى الله عليه وسلم :
 « لا تَقْرئُونَا مِنَ النِّسَاءِ السَّلَامِ » .
 إنه يحب أن يعيش في سلام مع قلبه ونفسه .

(١) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٢ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، والترمذى في جامعه ، والإمام أحمد في مسنده .

على أن أمر الورع المادى سهل بالنسبة لذى النون ومن اتبعه على طريقته، لقد وصل ذو النون بالحياة المادية بالنسبة للمريد إلى حدها الأدنى، إنه يقول للمريد :

« من طلب مع الخبز ملحاً ياكله لم يفلح فى الطريق أبداً » .
وكان ذو النون يعنى بذلك ألا يتكلف الإنسان شيئاً ، فإذا وجد الخبز الحلال ففيه الكفاية، ولله الحمد والشكر، وإذا وجد - دون طلب - مع الخبز شيئاً آخر فإن فضل الله عظيم وله الحمد والشكر .
وكان ذو النون يحذر دائماً من الجرى وراء شهوة الطعام، إنه يقول :

« لا تسكنُ الحكمةَ مَعِدَّةَ مُلْتِ طَعَاماً » .

وكان يقول :

« ما شبعْتَ من الطعام - قُطْ - إلا عصيتَ أو هممتَ بمعصية » .
ولكن الأمر الشاق فى الورع هو الجانب الروحى ، وهذا لا بد له من جهاد النفس حتى تتزكى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (١) .

وهذا النوع من الجهاد مارسه ذو النون حتى تغلب على نفسه وهواه، وسيطر - بفضل الله - عليهما، وقال كلمته التى صدرنا بها هذا الكتاب :

« كيفَ لا ابتهجُ بك سروراً ، وقد كنتُ أكُدُّ ببابك حتى جعلتني من أهل التوحيد » .

(١) سورة الشمس : ٩ .

الزهد:

وإذا صدق الإنسان في الورع قاده ذلك إلى الزهد، والزهد هو التحقق بقوله تعالى:

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (١).

إنه عدم تعلق القلب بالدنيا، أو هو سيطرة الإنسان على دنياه بحيث لا تستعبده . . إنه:

الآ يملكك شيء ولا يستعبدك شيء .

لقد تحدث ذو النون عن الزهد . وبيّن بعض تعريفات الناس له، فقال:

« اعلّموا - إخواني - أن الناس قد تكلموا في الزهد بمعان مختلفة،

فبعضهم قال:

« الزهد تَرْكُ حُبِّ المُنْزَلَةِ » .

وقالت طائفة:

« الزهدُ تَرْكُ راحة النفوس من جميع ما تستريح إليه » .

وقالت طائفة:

« الزهدُ تَرْكُ ما شَغَلَ عن الله » .

وقالت طائفة:

« الزهدُ رَقْصُ الدنيا وقِصْرُ الأمل » .

وقالت طائفة:

« الزهدُ النِّقَةُ بالله » .

(١) سورة الحديد : ٢٣ .

وقالت طائفة :

« الزهد الإيثارُ لله وتركُ كلِّ ما شغلَ عن الله » .

وقالت طائفة :

« الزهدُ إخراجُ المخلوقين من القلب، وحبُّ الخلوة » .

ولعل ذا النون كان يرى أن كل هذه التعريفات صادقة، والواقع أنه لا يتأتى أن يكذب الإنسان تعريفاً منها؛ فكلها موجهة إلى الخير، وإلى الرشد . . بيد أن ذا النون يضيف إليها - هنا وهناك - توضيحاً جديداً لبعض زواياها . . ولقد قال :

« اعلموا أن صفةَ الزاهدِ مَنْ لم يطلبِ المفقودَ حتى يفقدَ الموجودَ » .

وقال :

« سلبُ الغنى مَنْ حرَمَ الرضا، ومَنْ لم يُقنعه اليسيرُ افتقرَ في طلب الكثير » .

وقال :

« مَنْ وثقَ بالمقادير لم يغتم » .

وقال :

« من عرف الله رَضِيَ بالله وسرَّ بما قَضَى الله » .

وقال :

« عليك بالقصد ، فإن الرضا بقليل الرزق يزكِّي سيرَ العمل » .

ومهما يكن من أمر الزهد ، ومهما يكن من منزلته الرفيعة في التقوى ، فإنه ليس إلا مرحلة في الطريق .
يقول ذو النون عن الزهَّاد :

« الزُّهَادُ مُلُوكُ الْآخِرَةِ ، وَهُمْ فَقَرَاءُ الْعَارِفِينَ » .

ومرة أخرى يقول :

« وَهُمْ مَسَاكِينُ الْعَارِفِينَ » .

الزهد مرحلة ، إنه مرحلة ضرورية ، وهو يُسَلِّمُ إلى التوكل .

التَّوَكَّلُ :

والتوكل من المقامات السامية ، ولقد وعد الله سبحانه أن يكون حَسْبَ المتوكلين ، فقال :

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١) .

ويشرح ذو النون بعض جوانب التوكل فيقول - كما رواه يوسف ابن الحسين - :

« إن الله خَصَّ أَهْلَ وِلَايَتِهِ بِالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ ، لِيَعْرِفَهُمْ فَضْلَهُ وَإِحْسَانَهُ فَانصَرَفَتْ هُمُومُ الدُّنْيَا عَنْ قُلُوبِهِمْ ، وَعَظُمَ شُغْلُ الْآخِرَةِ فِي صُدُورِهِمْ ، لَمَّا رَكِبَهَا مِنْ هَيْبَةِ رَبِّهِمْ ، فَالْزَمُوا قُلُوبُهُمُ الْعِبَادِيَّةَ ، وَطَرَحُوا أَنْفُسَهُمْ فِي سَاحَةِ التَّوَكُّلِ » .

قال الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٢) .

« فالتوكل على الله قد اكتفى - بعلمه بالله - عن الاشتغال بغيره ؛ حتى اتصل خوفه ورجاؤه بالله ، لأنه لا مانع ولا معطى إلا الله ، فلم ترغب عن الله بجهلك ؛ فتخضع لمن دونه عند تخويف الشيطان ؟! ..

(١ ، ٢) سورة الطلاق : ٣ .

واعلم أن أخص المتوكلين عليه ، يحجب عنهم كل أمانة، فهم ينظرون إلى الله تعالى ، ولا يأملون غيره ، فقد حجب قلوبهم عن سواه ، بما يرجون من إحسانه ، واستغنوا بذكره عن ذكر غيره ..

واعلم أنك لا تكون متوكلاً حتى تصفو من كل مالك، ولا ترى إلا الله وحده ، ولا تقدر أن تفر من رزقك ، كما لا تقدر أن تفر من الموت ..
أما سمعت الله يقول:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (١).

فاقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك، واعلم أن الله يرزقك بسبب وبغير سبب ، ألا ترى أنه وعدك أن يرزقك ، وغيب عنك علمه ، ولو احتلت - بكل حيلة - أن يأتيك قبل وقته أو بعد وقته لم تقدر على ذلك فيما قصد لك ، لا يمنعك غيره .

« والتوكل يزيد وينقص مثل الإيمان ».

أما قوله :

« فاقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك » .. فإنه هو وما مثله من التعبيرات التي تتحدث عن التوكل ، قد أثار الكثير من سوء الفهم ، ومن الجدل الناشئ عن سوء الفهم .

إن رسول الله ﷺ وكبار الصحابة من أمثال أبي بكر رضي الله عنه ، وعمر ، وخالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم ، كانوا من كبار المتوكلين على الله سبحانه ، وكانوا - وعلى رأسهم الرسول ﷺ - يتخذون لكل أمر

(١) سورة الروم : ٤٠ .

عدته، فى الحرب، وفى السعى على المعاش، وفى تدبير الأمر الذى يوكل إليهم.

وكل ذلك أتباعاً لتوجيهات القرآن الكريم :

﴿ فَاَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ (١).

﴿ وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ (٢).

﴿ يَهْزِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (٣).

لقد اتخذ أسلافنا رضوان الله عليهم الأسباب لكل أمر، والعدة لكل حادث . . . ولكنهم لم يعتقدوا - فى يوم من الأيام - أن الأسباب هى الفاعلة، إنها ليست إلهاً، والفاعل الحق هو الله سبحانه :
ومن هنا كان :

« إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ » .

إن الأسباب ليست مؤثرة بنفسها، وكل أمر مرجعه إلى الله :

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ (٤).

إن الصالحين يتخذون لكل أمر عدته، ولكنهم لا ينسون أن الفاعل هو الله ، إنهم لا ينسون الله فى المبدأ . . فهو الموفق ، ولا ينسون الله فى الوسط . . فهو الميسر ، ولا ينسون الله فى الآخر . . فإليه المصير :

(٢) سورة الأنفال : ٦٠ .

(١) سورة الملك : ١٥ .

(٤) سورة هود : ١٢٣ .

(٣) سورة المزمل : ٢٠ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) ﴾ (١)

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَا وَقَضًّا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَاتٍ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) ﴾ (٢)

وانظر معى إلى قوله تعالى :

﴿ فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

وآيات الجهاد فى القرآن ، وآيات العمل ، وآيات كسب الرزق . .
إن كل ذلك حث على الأخذ بالأسباب .

(٢) سورة عبس : ٢٤ - ٣١ .

(١) سورة الواقعة : ٥٨ - ٧٢ .

(٣) سورة التوبة : ١٤ .

ومع ذلك فإن السبب الأول والعامل الأخير مردهُ إلى الله .
ولقد كافح رسول الله ﷺ كفاح الأبطال متخذاً الأسباب في
الصغير والكبير من ألوان كفاحه ، وكان في كل خطوة من خطواته
معتمداً على الله تعالى .

وفي ضوء ذلك ينبغي أن نفهم فكرة التوكل عند الصوفية .
أما ثمرة التوكل . . فإنها الاطمئنان إلى النتائج ، وكأن العبد
يقول : يا رب ، هأنذا قد بذلت كل ما أستطيع بوسائلى التى أملكها ،
لم أقصّر فى ذلك ، والنتيجة إليك وأنت الحكيم الرحيم ، عليك
توكلت وإليك أنيب ، إني واثق فى حكمتك ، مطمئن إلى رحمتك ،
راض بقضائك .

ويقول ذو النون فى التوكل :

« من توكل وثق ، ومن تكلف ما لا يعنيه ضيع ما يعنيه » .

وسأله رجل فقال :

« يا أبا الفيض ، ما التوكل ؟

فقال له :

« خلع الأرباب ، وقطع الأسباب » .

فقال له : زدنى فيه حالة أخرى ؟

فقال :

« إلقاء النفس فى العبودية ، وإخراجها من الربوبية » .

وإذا صدق التوكل أسلم إلى الرضا . .

الرضا:

والرضا هو التسليم الكامل القلبي لكل ما يأتي عن الحكيم الرحمن . . إنه منزلة :

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (١).

ولن تجد بين المسلمين من لا يعترف بأن الرضا مقام سام ، وأنه المقام الذى يجب أن يكون عليه كل مسلم ، وذلك أن كل مسلم يعترف بأن الله أحكم الحاكمين ، وأنه أرحم الراحمين ، ومن كان كذلك فلا بد من الرضا بقضائه .

وقد يجد الإنسان من يجادل فى مقام الزهد ، أما فى مقام الرضا فلا تجد - نظرياً - من يجادل فيه ، بيد أن واقع الناس يختلف عن نظرياتهم ؛ فواقع الناس هو عدم الرضا ، وكل صغيرة وكبيرة إنما هى محل شكوى ، وقليل جداً من يقول فى كل أحواله : الحمد لله .

وإذا قالها فيما يرضيه فإنه لا يقولها فيما لا يتفق مع هواه .

وإن لذى النون - عن مقام الرضا - الكثير من النفائس ، إنه يقول :

« طُوبَى لِمَنْ أَنْصَفَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » .

قيل : وكيف ينصف ربّه ؟

قال :

« يقرُّ له بالآفات فى طاعته ، وبالجهل فى معصيته ، وإن أَخَذَهُ بذنوبه

رأى عدله ، وإن غفر له رأى فضله ، وإن لم يتقبل منه حسناته لم يره

(١) سورة المائدة : ١١٩ .

ظالمًا لما معه من الآفات ، وإن قبلها رأى إحسانه لما جاد به من الكرامات » .

ويقول :

« لم يحب الله من لم يَرْضَ بقدره . ولم يَرْجُ الله من لم يثق بقسمه » .
وقال :

« مَنْ وثق بالمقادير لم يَغْتَم » .

وعن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول :

« من قال: لو...لكان ، فقد وَلَّى الأمر غير الله » .

فإذا استمر المتصوف فى مقاماته مع « الذكر » أسلمه ذلك إلى معرفة الله بالله .

المعرفة :

وذو النون يقسِّم المعرفة إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول:

حظ مشترك بين عامة المسلمين .

القسم الثانى:

معرفة خاصة بالفلاسفة والعلماء .

القسم الثالث:

وهو العلم بصفات التوحيد خاص بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم .

ولقد سئل ذو النون عن كمال العقل وعن كمال المعرفة فقال :

« إذا كنت قائماً بما أُمِرت، تاركاً لتكُلِّف ما كُفِيت، فأنت كامل العقل. وإذا كنت بالله - عز وجل - متعلقاً ، وغير ناظر إلى سواه من أحوالك وأعمالك ، فأنت كامل المعرفة » .

أما أغلب الأحوال التي استعبد الله سبحانه بها العارف ، فهي بحسب رأى ذى النون :

* رؤية كل شيء منه .

* ورجوعه فى كل شيء إليه .

* وسؤاله إياه كلَّ شيء .

والعارف - كما يقول ذو النون - لا يلزم حالة واحدة ، إنما يلزم ربه فى الحالات كلها .

أما عبادة العارفين ، فعنها يقول :

« إن لله عبادةً عبده بخالص من السرِّ فشرَّفهم بخالص من شكره ، فهم الذين تمرُّ صحفهم مع الملائكة فرغى ، حتى إذا صارت إليه ملأها لهم من سرٍّ ما أسروا له .

إن حظ العارفين فى الأشياء « هو » .. ومن أجل ذلك : لا يبالون ما فاتهم، مما هو دونه، والعارف فى كل يوم أخشع؛ لأنه كل ساعة أقرب » .

وسئل ذو النون : بِمَ عرف العارفون ربهم ؟ فقال :

« إن كان بشيء فبقُطْع الطمع ، والإشراف منهم على اليأس ، مع التمسك منهم بالأحوال التى أقامهم عليها، وبذل المجهود من أنفسهم ، ثم إنهم وصلوا - بعد - إلى الله بالله » .

وقال :

« إن العارف استغنى بربه.. فَمَنْ أَغْنَى مِنْهُ ؟ وورثته ذكره، وأناخه بفنائه : فاستأنس به » .

أما رسالة العارفين فهي :

* نشر « لا إله إلا الله » فى مجالس الذاكرين.

* وتفرّيج كُرب التوابين.

* والدلالة على الله بلسان التوحيد لجميع العالمين .

ومع كل ذلك فإن لكل قوم - كما يقول ذو النون - عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

وإذا ما وصل الإنسان إلى « المعرفة » فقد أصبح صوفياً .

* وهنا يمكن أن نتساءل:

- إذا ما وصل إلى المعرفة هل يتأتى أن يتكسر ؟

- أيمكن أن يتكسر الصوفى فيصبح من أهل الدنيا ؟

عن ذلك يقول ذو النون :

« ما رجع مَنْ رجع إلا من الطريق ، ولو وصلوا إليه ما رجعوا ..

فازهد فى الدنيا تَرَ العجب » .

إن العارف لا يتكسر ؛ لقد قطع المقامات التى تربطه بالدنيا ، إنه أصبح ربانياً ، وأصبح قلبه خالياً مما سوى الله سبحانه ، إنه أصبح فى سعادة بالله ، أو أصبح - على حد تعبير ابن سينا - مبتهجاً بالله ، إنه وصل إلى الحالة التى يقول فيها الصوفية :

« نحن فى سعادة لو عَلِمَها الملوك لَجَالِدُونَا عليها بسيوفهم » .
 إنها السعادة التى آثرها إبراهيم بن آدهم رحمته على مَلَأَدُ الدنيا
 كاملة موفورة، وإنها السعادة التى آثرها الفضيل بن عياض على حياة
 الفُتُوَّة والشطارة، وأمجاد القوة والغلبة، وهى السعادة التى يؤثرها
 كل من وصل إليها على ما عداها .
 أيتكس ؟ . . كلاً وحَاشَ لله أن يتكسوا من وصلوا إليه .
 إن مقام المعرفة هو مقام الواصلين، وعن هذا المقام ينبثق مقام
 المحبة .

المحبة :

يقول ذو النون :

أَمُوتُ..وَمَا مَاتَتْ إِلَيْكَ صَبَابَتِي وَلَا رَوَيْتُ مِنْ صَرْفِ حَبْكَ أَوْطَارِي
 مُنَايَ الْمَنَى كُلَّ الْمَنَى..أَنْتَ لِي مُنَى وَأَنْتَ الْغِنَى كُلَّ الْغِنَى؛ عِنْدَ إِقْتَارِي
 وَأَنْتَ نُهَى سُوْلِي وَغَايَةُ رَغْبَتِي وَمَوْضِعُ شَكْوَايَ وَمَكْنُونُ إِضْمَارِي
 تَحَمَّلَ قَلْبِي - فَيْكَ - مَا لَا أَبْثُ وَإِنْ طَالَ سَقَمِي فَيْكَ أَوْ طَالَ إِضْرَارِي
 وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْكَ مَا لَكَ قَدْ بَدَا .. وَلَمْ يَبْدُ بِأَدِيهِ لِأَهْلِ، وَلَا جَارِ
 أَنْزَلْتَ الْهُدَى لِلْمَهْتَدِينَ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ النُّورِ فِي أَيْدِيهِمْ عُسْرٌ مِغْشَارِ
 فَتَلْنِي بِعَفْوِ مَنْكَ ؛ أَحْيَا بِقُرْبِهِ وَغِنْنِي بِبُشْرِ مَنْكَ يَطْرُدُ إِعْسَارِي

ويربط ذو النون المحبة والذكر . . فعن سعيد بن عثمان، قال :
 سمعت ذا النون يقول :

« وَيُحَكِّ ، مَنْ ذَكَرَ اللهَ عَلَى الْحَقِيقَةِ نَسِيَ فِي حَبِهِ كُلَّ شَيْءٍ ، وَمَنْ نَسِيَ فِي حَبِهِ كُلَّ شَيْءٍ حَفِظَ اللهُ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ وَكَانَ لَهُ عَوْضاً فِي كُلِّ شَيْءٍ » .

ويعتبر ذو النون محبة الله سرّاً لا يجوز اخوض فيه لئلاً يسمعه العوام ، وقد تذاكر القوم المحبة في مجلسه ، فقال :
« كُفُّوا عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ حَتَّى لَا تَسْمَعَهَا النُّفُوسُ فَتَدْعِيهَا » ثُمَّ أَنْشَدَ :

الْخَوْفُ أَوْلَى بِالْمُسِيءِ إِذَا تَأَلَّهَ وَالْحَزَنُ
وَالْحُبُّ يَجْمَلُ بِالتَّقَى وَبِالتَّقَى مِنَ الدَّرَنِ

وهذا الموقف هو موقف المقدّس للمحبة الذي يصل تقديسه لها إلى السمو بها حتى عن الحديث عنها .

وكان ذو النون يهيج السماع ، إذا اتصل بحب الله سبحانه ، فتدحدثوا أنه لما دخل بغداد اجتمع إليه الصوفية ومعهم قوأل منشد . . فابتدأ ينشد :

صَغِيرُ هَوَاكَ عَذَّبَنِي فَكَيْفَ بِهِ إِذَا احْتَكَمَا
وَأَنْتَ جَمَعْتَ مِنْ قَلْبِي هَوَى قَدْ كَانَ مُشْتَرَكَا
أَمَّا ثَرثِي لِمُكْتَنِبٍ إِذَا ضَحِكَ الْخَلَى بَكَى

فانتشى ذو النون ، ومن شدة نشوته سقط على وجهه وظل الدم يقطر منه وهو لا يدرى .

ولحب الله على الحقيقة علامات منها ما حدّث به محمد بن أحمد ابن عبد الله بن ميمون قال : سمعت ذا النون يقول :

« قُلْ لِمَنْ أَظْهَرَ حُبِّ اللَّهِ : احْذَرُ أَنْ تَذَلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ . ومن علامة المحبِّ لله ألا يكون له حاجةٌ إلى غير الله » .

ومنها ما حدث به سعيد بن عثمان قال : سمعت ذا النون يقول :
« من علامة المحبِّ لله تَرُكُ كل ما شغَلَ عن الله : حتى يكون الشغل كله به له » (١) .

ويصف ذو النون مدى تعلق المحبين بربهم فيقول :
« خَوْفُ النَّارِ إِذَا قِيسَ إِلَى خَوْفِ الْقَطْعِ عَنِ الْمَحْبُوبِ . كَقَطْرَةِ الْمَاءِ تُقَذَّفُ فِي أعْظَمِ الْمَحِيطَاتِ » .

الْوُدُّ :

وعن المحبة تنبثق أحوال عدة ، فعنها ينبثق حال « الود » وهو حال من الحالات الشريفة السامية ، ولقد سمي الله نفسه : الودود ، ويقول على لسان أحد رسله :
﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (٢) .

والصوفية كثيراً ما يلجأون إلى هذا الاسم الشريف في دعائهم ، ومن ذلك قول شاعرهم :

وَمَنْ عَلَيْنَا يَا وَدُودُ بِجَذْبَةٍ بِهَا تُلْحَقُ الْأَقْوَامُ مَنْ سَارَ قِبْلَنَا

وعن الود يقول ذو النون :

« الحب لله عامٌ ، والودُّ لله خاصٌّ : لأن كل المؤمنين يَذوقون حُبَّهُ وَيَنَالُونَهُ ، وليس كل مؤمن يَنَالُ وَدَّهُ » . .

(١) أخرجه البيهقي في « الزهد » . (٢) سورة هود : ٩٠ .

ثم أنشأ يقول :

هَجَرَ جميعَ العباد	مَنْ ذاقَ طعمَ الوداد
خَلَّى لذيذَ الرُقَاد	مَنْ ذاقَ طعمَ الوداد
سَلَى طريقَ العباد	مَنْ ذاقَ طعمَ الوداد
أنسَ بِرَبِّ العباد	مَنْ ذاقَ طعمَ الوداد

وعن المحبة ينبثق حال الأنس بالله . .

الأنس :

ويقول ذو النون عن ذلك :

« الأنس بالله من صفاء القلب مع الله ، والتفرُّد بالله : الانقطاع من

كل شيء سوى الله » .

وفى تاريخ ابن عساكر عن أحمد بن قطن بن أبي قطن ، قال :

سئل ذو النون - وأنا حاضر عنده - :

- متى يجد العبد حلاوة الأنس بالله عز وجل ؟

قال :

« إذا قَطَعَ العلائق ، ورَفَضَ الخلائق ، وكان من أهل الحقائق ، وعَمِلَ

بالرقائق ، فحينئذٍ ينجو من البوائق » .

وقال :

« إذا أَحَبَّ القلبُ الخلوةَ ، فقد أوصله حبُّ الخلوة إلى الأنس بالله ،

ومَنْ أنسَ بالله استوحشَ من غير الله ، فله دَرُّ قلوبٍ أنستُ بجلال

الله ، وارتعدتُ فزعاً لهيبته » .

وعن البرقي قال : سمعت ذا النون يقول :
« الأنس بالله نورٌ ساطع ، والأنس بالخلق غمٌ واقع » .
ولقد وصل ذو النون بالأنس بالله إلى منزلة يقول عنها :
« أدنى منازل الأنس أن يُلقَى في النار فلا يغيب عن مأموله » .

الشوق :

أما عن الشوق فيقول ذو النون :
« الشوقُ أعلى الدرجات والمقامات ، إذا بَلَغَهُ اسْتَبْطَأَ الموتَ شوقاً إلى
ربه ، وحباً للقائه والنظر إليه » .
وعن أحمد بن يوسف قال :
سئل ذو النون عن استحقاق الاشتياق ، فقال :
« إذا استحقَّ الاشتياق قُرْبَ من باب الخلاق ، وشربَ من كأسِ المذاق ،
فُشِّقَ واشْتَقَّ » .

وهذه كلمات تلقى بعض الضوء على ما سبق أن ذكرناه في باب
التصوف :

« سأل أبو عبد الله بن سهل ذا النون : قال : متى أتوكل ؟
قال :

اليقين إذا تَمَّ سُمِّيَ تَوَكُّلاً .

قلت : متى يتم حبي لربي ؟

قال :

إذا سَمَّجَتِ الدنيا في عينيك ، وَقَذَفْتَ أَمْلَكَ فيها بين يديك .

قلت : فمتى أخاف ربي ؟

قال :

إذا سَرَحْتَ بصرك في عظمته ، ومَثَلْتَ لنفسك أمثال نقمته.

قلت : فمتى يتم صومي ؟

قال :

إذا جَوَّعْتَ نفسك من البغضاء ، وأَمَتَّ لسانك من الفحشاء.

قلت : فمتى أعرف ربي ؟

قال :

إذا كان ما أسخطه عندك أمراً من الصبر.

قلت : فمتى أشتاق إلى ربي ؟

قال :

إذا جعلت الآخرة لك قراراً ، ولم تُسَمِّ الدنيا لك مسكناً وداراً.

قلت : فمتى أشتد في بغض الدنيا ؟

قال :

إذا جعلت الدنيا طريقَ مخافةٍ لا تلتفتُ إلى ما قطعتَ منها، وجعلتَ

الآخرة ساحةً مأمونةً لا تَأْمَنُ إلا بالنزول فيها .

قلت : فمتى أحب لقاء ربي ؟

قال :

إذا كنت تقدم على حبيب ، وتصبر عن أمر قريب.

قلت : فمتى أستلذ الموت ؟

قال :

إذا جعلت الدنيا خلفَ ظهرك ، وجعلت الآخرة نُصْبَ عينيك .

قلت : فمتى أتقى شهوات مطاعم الأرض ؟

قال :

إذا خالطَ قلبك الملكوت ، ومُزجَ في سرائر الجَبَروت .

قلت : فمتى تطيب معرفتى ؟

قال :

إذا استوحشتَ من الدنيا واشتدَّ فرحُك بنزول البلاء .

قلت : فمتى أستقبح الدنيا ؟

قال :

إذا علمتَ أن زينتها فساد كل معنى ، وأن محاسنها تُفضى إلى كل

حسرة .

قلت : فمتى أكتفى بأهون الأغذية ؟

قال :

إذا عرفتَ هلاك الشهوات ، وسرعة انقطاع عذوبة اللذات .

قلت : فمتى القنوع التام ؟

قال :

إذا كان زخرف الدنيا عندك صغيراً ، وكان خوف الآخرة لك ذكراً .

قلت : فمتى أمر بالمعروف ؟

قال :

إذا كانت شفتُكَ على غيرك ، وخالفتَ العباد لمحبة ربك .

قلت : فمتى أُؤثر الله ولا أُؤثر عليه سواه ؟
قال :

إذا ابغضتَ فيه الحبيب ، وجانبتَ فيه القريب .
قلت : فمتى أفزع إلى ذكره ، وأنس بشكره ؟
قال :

إذا سررتَ ببلائه ، وفرحتَ بنزول قضائه .

الخلوة :

والحديث عن «التصوف» يكون قاصراً؛ إذا لم نتحدث عن «الخلوة» .

وما من شك في أن الخلوة فترة من الزمن ضرورية للمريد ، إنها تصرفه إلى الله صرفاً كلياً؛ فتصفو ثُربته ، ويستنير قلبه بالذكر المتوالى ويرى في خلوته وتأملاته الدنيا على حقيقتها «متاع الغرور» ويقترّب من الله في خلوته بسجوده وبصفاء سيرته .

ولقد كتب السهروردي في كتابه « عوارف المعارف » فصلاً جميلاً عن الخلوة وشروطها وأذكارها ، وكتب غيره عنها .

والناس - عادة - يستجمون جسمانياً كل عام ، وإن استجمامهم الروحي - ولو أسبوعاً واحداً - أوجب لهم وأفضل أثراً للمجتمعهم ، وأهدى إلى الرشد .

ويقول ذو النون عن الخلوة :

« لم أرَ شيئاً أبعثَ لطلب الإخلاص من الوحدة ؛ لأنه إذا خلا لم يرَ غير الله، فإذا لم يرَ غيره لم يحركه إلا حكم الله. ومن أحب الخلوة فقد تعلّق بعمود الإخلاص ، واستمسك بركن كبير من أركان الصدق، ومن تَرَيَّنَ بعمله فحساناته سيئات » .

ولكن ذا النون حينما تمكَّن نور الإخلاص من نفسه قال :
« ليس من احتجبَ عن الخلق بالخلوة كَمَن احتجبَ عنهم بالله » .

سر الملكوت :

فى هذه الكلمة يبين ذو النون سر الملكوت ، وهى كلمة من النفاسة بحيث رأينا أن نختم بها فصل التصوف ؛ حتى تكون خاتمة لهذا الفصل . .

يقول أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن هاشم :

قلت لذى النون :

- كم الأبواب إلى الفطنة ؟

قال :

« أربعة أبواب: أولها الخَوْفُ ، ثم الرَّجَاءُ ، ثم المحبَّة ، ثم الشَّوق..

ولها أربعة مفاتيح :

فالقَرَضُ مفتاح باب الخوف ، والنافلة مفتاح باب الرجاء ، وحبُّ العبادة مفتاح باب المحبة ، وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق ، وهى درجة الولاية.

فإذا هممت بالارتقاء في هذه الدرجة ، فتناول مفتاح باب الخوف ، فإذا فتحته اتصلت إلى باب الفطنة مفتوحاً لا غلق عليه ، فإذا دخلته فما أظنك تطيق ما ترى فيه ، حينئذ يجوز شرفك الأشراف ، ويعلو ملكك الملوك.

واعلم - يا أخى - أنه ليس بالخوف يُنال الفرض ، ولكن بالفرض يُنال الخوف، ولا بالرجاء تُنال النافذة، ولكن بالنافذة يُنال الرجاء، كما أنه ليس بالأبواب تُنال المفاتيح ، ولكن بالمفاتيح تُنال الأبواب .

واعلم أنه مَنْ تَكَامَلَ فِيهِ الْفَرْضُ فَقَدْ تَكَامَلَ فِيهِ الْخَوْفُ ، وَمَنْ جَاءَ بِالنَّافِلَةِ فَقَدْ جَاءَ بِالرَّجَاءِ، وَمَنْ جَاءَ بِمَحَبَةِ الْعِبَادَةِ فَقَدْ وَصَلَ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ شَغَلَ قَلْبَهُ وَلِسَانَهُ بِالذِّكْرِ ؛ قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ نُورَ الْإِسْتِيقَاقِ إِلَيْهِ، وَهَذَا سِرُّ الْمَلَكُوتِ فَاعْلَمَهُ وَاحْفَظْهُ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - هُوَ الَّذِي يَنَاولُهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .

* * *